

# دوامة صغيرة تي. إس. إليوت



تعريب عبد المجيد عاشق

((١))

ربيعُ أو اسطِ الشتاءِ  
فصلُ خالدٍ على رغم من أن اخضلاله آيل إلى الزوال  
عُلّق في الزمن بين القطبِ والمدارِ  
حيث يكون النهار القصير أكثر إشراقاً  
متسماً بالثلج والنار  
فالشمس العابرة تلُهبُ الثلج على البركة والجداول،  
بردٌ قارسٌ هو دفاء للقلب  
يعكسُ في المرآة المائية بريقاً  
إن هو إلا عمى في مساء مبكر  
توهج أكثر شدة من السنة اللهيب  
أو جمرٍ يثيرُ روحاً خرساء، ليس من ريح  
لكنها نارُ الفصح في وقت مظلم من السنة  
بين الذوبان والتجمد ترتجف عصارة الروح  
ليس هناك من رائحة للعالم أو لشيء حي  
هذا هو الربيع وزمنه اللامعهود.

والآن... صف الأشجار مكسو بالبياض لبرهة

بفضل لمسة عابرة من الثلج

وزهرة أكثر مباغته من ذلك الصيف،

إذ لا تزهر ولا تذبل،

خلاقاً لنسق الجيل

حيث الصيف اللامعقول،

الصيف الأجوف؟

إذا كنت آتياً من هذا الطريق

سالكاً الدرب الذي ستبدأه

من المكان الذي قد تأتي منه

إن سلكت هذا الدرب في وقت ما

سوف تجد الأشجار بيضاء مرة أخرى، في أيار، وبحلاوة مغرية

وسيكون الأمر ذاته عند نهاية الرحلة،

إذا عدت في ليلة كملك مهزوم،

إذا جئت يوماً وأنت تجهل ما أتيت من أجله

سيحدث الأمر ذاته عندما تهجر الدرب الصعب

وتستدير خلف الحظيرة إلى الواجهة القاتمة

وحجر القبر أما الذي اعتقدت بأنك قادم لأجله

فما هو سوى قوقعة وقشر للمعنى

للهدف الذي ينطفئ لحظة اكتماله

إما أن تكون بلا غاية أو أن الغاية ما وراء النهاية التي رسمتها

ثم وقع التغيير هنالك أماكن أخرى

هي أيضاً نهاية العالم، بين فكي البحر

أو على بحيرة مظلمة، أو في صحراء أو في مدينة ما —

لكن هذا هو الأقرب مكاناً وزماناً،

الآن وفي إنكلترا

إذا سلكت هذا الطريق

ومن أي إتجاه وفي أي مكان أو زمان أو فصل

فستجد دائماً الشيء ذاته: عليك أن تُلقي بإحساسك وفكرتك.

فأنت لست هنا لتُحقق أو تتعلم أو تشبع فضولك

أو تعد كشفاً. أنت هنا لترجع

عندما تحل الصلاة.

الصلاة هي أكثر من نظام كلمات، أو سيادة الإدراك

على عقل المصلي، أو صوت تراتيل.

ما لا يمكن أن يقوله الموتى، أثناء حياتهم،

يمكن أن يخبروك به عند موتك: وسيلة اتصال الموتى

تتلسن بالنيران خلف لغة الأحياء.

هنا، التقاطع في لحظة اللازم

إنها إنكلترا وليس أي مكان آخر مطلقاً وأبداً.

((٢))

رماد في كمّ رجل مسن

هو كل ما تبقى من رماد الورود المحترقة

غبار عالق في الهواء

يشير إلى مكان انتهاء الحكاية

يتملأ البيت بأنفاس الغبار—

وكذلك الجدران والخمر والفأر

إنه موت الأمل وحلول اليأس

إنه موت الهواء

فيضان يغمر العيون

وجفاف في الفم

ماء ميت ورمال ميتة

صراع من أجل البقاء

إن أعماق التربة العطشى

تفغر فاها بضحكة كاذبة على عناء الإنسان

وهذا هو موت الأرض

الماء والنار يعقبان البلدة والمرعى والعشب

الماء والنار يهزان من القربان الذي نكرناه

الماء والنار سيفسدان أسس الزواج التي نسيناها

من قديسين ومنشدين

وهذا هو موت الماء والنار

في ساعة ما قبل الصباح

قريباً من نهاية ليل لا ينتهي

عند نهاية متكررة من اللانهاية

بعد أن مرت الحمامة السوداء

بلسان يخفق متبعة أفق حدسها

بينما بقيت الأوراق الميتة تخشخش على الإسفلت بصوت كالصفيح

إذ لا صوتاً آخر

بين ثلاث مناطق حيث يتصاعد الدخان

التقيت شخصا يمشي متسكعا ومهرولا

وكأنه يندفع نحوي كتلك الأوراق

عند فجر مدني عاصف لا يحتمل

وكما لو أنني مثبتُ أمام وجه مقلوب

ذلك تشخيص دقيق لما تحديناه

اللقاء الغريب الاول في غسق مضمحل

لمحت نظرة مفاجئة لسيد ميت

هو من عرفته ونسيته بنصف ذاكرة مرة ومرات،

بسمات بنية ضربتها الشمس

تتشرك العينان بصفتين: الألفة والشبحية

صفتان حميمتان مجهولتان

لذا أفترض أنهما شيئان متماثلان، فصرخت

وسمعت صوت صراخ آخر

"ماذا! أنت هنا؟"

مع أننا لم نكن هنا أنا لا زلت كما أنا،

مدركاً أنني شخص آخر—

وهو وجه لا يزال يتشكل، ومع ذلك فالكلمات تكفي

لتجبرنا على الاعتراف بأنهم سبقونا

وهكذا، ننساق مع مجرى الريح،

غرباء جداً عن بعضنا يغلبنا سوء الفهم،

في الانسجام حول تقاطع الزمن هذا

في لقاء لا مكان له، ليس قبل ولا بعد،

وطأنا الطريق بدورية مينة

قلت: "الاندهاش الذي أحسه سهل،

لا زالت الراحة سبب الاندهاش لذلك أقول:

ربما لا أفهم ربما لا أتذكر"

ويقول: "أنا غير متلهف لأكرر معتقداتي ورؤيتي التي نسيتهَا.

فتلك أشياء حققت أغراضها: فدعها وشأنها.

هكذا وبكل ما تملك، وبصلاتك للآخرين ليتسامحوا،

وكما أصلي لك لتسامح

كلا الأشرار والأخيار ثمار الفصل الأخير مأكولة

والوحش المتختم سيلقى حتفه

لكلمات السنة الأخيرة انتساب للغة السنة الأخيرة

ولكلمات السنة القادمة انتظار لصوت آخر

لكن انتقال كهذا لا يجد الآن ما يعترضه

لروح متذمرة رحالة

بين عالمين أصبحا متشابهان كثيراً،

لذلك أجد كلمات لم أفكر بقولها

في شوارع لم أفكر مطلقاً أن علي زيارتها ثانية

عندما هجرت جسدي على شاطئ بعيد

منذ كان اهتمامنا كلاماً، أجبرنا الكلام

أن نهذب لهجة القبيلة

ونحث العقل على البصيرة والتأمل،

دعني أفتح الهدايا التي حفظت دهرًا

لأنصب التاج على جهد عمرك

أولاً: علاقة باردة لمشاعر ذابلة

من دون سحر أو وعود  
سوى فاكهة ظل مرة لا طعم لها  
كجسد وروح شرعا بالسقوط والانفصال.  
ثانيا: العجز الواعي عن الغضب  
حيال حماقات الإنسان، والإحجام عن الضحك  
لما توقف عن إيهاجنا.  
وأخيراً: الألم الممزق لإعادة الدور  
لكل ما قمت بفعله وما وقع لك؛  
والخجل من دوافع اكتشفت مؤخراً،  
وإدراك أشياء حدثت بشكل سيء  
وحدثت لأذى الآخرين  
تلك التي اتخذتها يوماً لتمارس الفضيلة  
حيث وخزات المجانين المستحسنة ووصمات الشرف  
من خطأ إلى خطأ تتقدم الروح الساخطة،  
ما لم تُعاد إلى تلك النار المُطهرّة  
حيث عليك التحرك بإيقاع، كالراقص  
كان الفجر ينبلج، في الشارع مشوه  
غادرني، بطعم من التوديع  
وخبا على نفيخ الصور.

((٣))

هنالك ثلاثة ظروف غالباً ما تبدو متشابهة  
مع أنها تختلف كلياً، وتتجلى في المكان ذاته:



الاتصال بالنفس والأشياء والأشخاص

والانفصال عن النفس والأشياء والأشخاص

وتتنامي بينها اللامبالاة

تلك التي تشبه الآخرين كما الموت يشبه الحياة،

كأننا بين حياتين — غير مزهر

بين الشوك الحي والميت. هذا هو استخدام الذاكرة.

للتحرر — ليس أقل من الحب، بل امتداد الحب

ليتجاوز الرغبة، وكذلك التحرر

من المستقبل والماضي. وهكذا،

حب البلد يبدأ بالارتباط بمكان تواجدنا

ثم نجد أن سعينا من دون أهمية تذكر

وعلى رغم من ذلك لا نبالي مطلقاً. قد يكون التاريخ عبودية،

قد يكون التاريخ حرية. انظر لقد تلاشوا الآن،

الوجوه والأماكن، مع الذات التي كما لو أنها تمكنت من حبهم،

لنتشكل من جديد بهيأة أخرى

الخطيئة أمر واجب،

غير أن كل شيء سيكون على ما يرام،

وكل شيء سيأخذ مجراه الصحيح

إذا ما فكرت مرة أخرى بهذا المكان،

وفي هؤلاء الناس، فلن استحق الثناء الكامل،

ممن لا تربطهم صلة أو شفقة،

سوى شيء من النبوغ الغريب،

الكل مرتبط بعقريّة مشتركة،



متحدون في النزاع الذي قسمهم؛  
إذا فكرت:

في ملك عند حلول المساء،  
وبثلاثة رجال و أكثر على المشنقة  
وقلة ممن ماتوا منسيين

وفي أماكن أخرى هنا وفي الأقصي  
وفي من مات كفيفاً و هادئاً  
لم علينا تأبين

هؤلاء الموتى أكثر من المحتضرين؟  
فالأمر ليس إطلاق ناقوس الموت ورائهم  
ولا قراءة تعويذة

لنستدعي طيف العذراء.  
لا يمكننا إحياء الزمر القديمة  
أو إعادة السياسات القديمة  
أو إتباع طبل عتيق

فهؤلاء الرجال ومن يقف ضدهم  
يقبلون بقانون الصمت  
وينضون تحت راية واحدة

مهما نرث من السعادة  
فقد نلنا شيئاً من الهزيمة

وما كان عليهم أن يتركوه لنا —  
ما هو إلا رمز اكتمل بالموت  
كل شيء سيكون على ما يرام

وسياًخذ كل شيء مجراه الصحيح

بصفاء النية

وتضرعنا على هذه الأرض.

((٤))

تتحرر الحمامة مخترقة الهواء

بلهيب من الذعر المتوهج

حيث تعلن ألسنة النيران

منفذاً واحداً للخلاص

أمل واحد وليس سواه

خداع في الاختيار بين المحرقة أو المحرقة —

تتجد الخلاص من النار بالنار

من الذي ابتكر العذاب إذاً؟ الحب

الحب اسم غير مألوف

خلف الأيدي التي حاكت

قميصاً لا يطاق من اللهب

ولا يمكن لقوى الإنسان أن تزيله

نعيش فقط ، ننتهد فقط

نلُتهم إما بالنار أو بالنار

((٥))

إن ما ندعوه البداية هو غالباً ما يكون النهاية

وحين نضع نهاية فإننا نضع بداية

النهاية هي النقطة التي نبدأ منها. وكل عبارة  
وجملة صحيحة (حيث كل كلمة في الوطن،

تأخذ مكانها لتدعم الأخريات،

الكلمة ليست خجولة ولا متباهية،

تجارة سهلة للقديم والجديد،

الكلمة المتداولة متقنة بدون ابتذال،

الكلمة الرسمية دقيقة لكنها ليست متحذقة

القرينتان المتناغمتان تتراقصان سوية)

كل عبارة وكل جملة هما نهاية وبداية،

كل قصيدة هي مرثية. أي حركة

تشكل خطوة نحو الحاجز، نحو النار، نحو قاع البحر

أو نحو قبر مجهول: وذلك هو مكان بدايتنا.

نموت مع المحتضرين:

أنظر، هم يغادرون ونحن نغادر معهم.

نحن نولد مع الموتى:

أنظر، هم يعودون ويصطحبوننا معهم.

إن الوردة وشجرة الطقُسوس

متساويتان في الأجل. ناس بلا تاريخ

تاريخ مكبل بالزمن، هو ضرب

من لحظات لا زمنية. وبينما ينحسر الضوء

عن أصيل شتائي، في معبد ناءٍ

يكون التاريخ هو الحاضر هو إنكلترا

مع رسم هذا الحب وصوت هذا النداء

لن نتوقف عن الاستكشاف

وسنعود في نهاية كل جهودنا

إلى حيث بدأنا

وسنتعرف على المكان من النظرة الأولى.

عبر بوابة مجهولة لم نتذكرها

حيث غادر ما تبقى من سكان الأرض ليكتفوا

كانت تلك هي البداية؛

عند منبع أطول نهر

صوت الشلال الخفي

والأطفال على شجرة التفاح

مجهولين منسيين

لكنهم سمعوا بصوت خافت، في السكون

بين موجتي البحر.

والآن على عجل، هنا، الآن، ودائماً —

والوضع ببساطة تامة هو

(التمن ليس أقل من ... كل شيء)

وعندها كل شيء سيكون على ما يرام

وسياخذ كل شيء مجراه الصحيح

حين تنطوي ألسنة اللهب

في العقدة المتوجة من النيران

وتتلاشى الفروق بين الجنة والنار.

المصدر: المجلة العلمية الأميركية Scientific American

Magazine